

## صلاح الدين والتطهير

كتبت في مقالين سابقين عن القدس ومكانتها عند المسلمين أعادها الله إليهم، وذكرت شيئاً من تاريخها منذ فتحها أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ثم تحدثت عن وقوعها في أسر الصليبيين في القرن الخامس الهجري وما فعلوه بها وبأهلها المسلمين، وحديث اليوم موصول بما سبقه، وهو خاص بجهاد صلاح الدين الأيوبي واستعادته لبيت المقدس ومعاملته لأعداء المسلمين فيها عند انتصاره عليهم.

كان صلاح الدين - رحمه الله - مجاهداً صادقاً بذل جهوده في إعداد القوة لمواجهة الأعداء، وشارك جنده بنفسه في الجهاد حيث كان في مقدمة صفوفهم.

وقبل أن يتوجه إلى بيت المقدس حرر العديد من المواقع في بلاد الشام وخصوصاً المواقع الساحلية التي يقدم الغزاة عن طريقها من أوروبا واستدعى صلاح الدين الأساطيل الإسلامية المصرية للمحافظة على تلك المواقع الساحلية الهامة.

وعندما ضمن صلاح الدين حماية السواحل بالأساطيل الإسلامية ضد أي هجوم بحري متوقع توجه إلى بيت المقدس التي ازدحمت بالصلبيين، يقودهم بطريك بيت المقدس، وكانوا يرون أن الموت أهون عليهم من استعادة المسلمين لها فالقدس كما هو معروف لها شأن كبير عند جميع الطوائف النصرانية.

كمن النصارى للطلائع الأولى من قوات صلاح الدين فأوقعوا بهم، ومع ذلك أصر المسلمون على التقدم إلى القدس، ووصلوا إلى أسوارها، وقد بقي صلاح الدين بنفسه ومع جنده خمسة أيام يدورون على المدينة يتحسسونها كالصقور، ويستقصون أخبارها ويراقبون مواقعها العسكرية الدفاعية ليختاروا المكان المناسب للهجوم، ثم نصبوا المنجنيق على جانب من المدينة، وفي المقابل نصب الصليبيون منجنيق داخل أسوار القدس كانوا يرمون بها المسلمين، وتقاتل الفريقان قتالاً شديداً وكان شجعان الصليبيين يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد ويقاتلون المسلمين، والحماس شديداً بين الطرفين فبقدر ما كان الصليبيون حريصين على الاحتفاظ بالقدس لوازع ديني عندهم، كان المسلمون أشد حرصاً منهم على استرداد المدينة لوازع ديني أقوى، واستمات كثير من المسلمين في القتال طلباً للشهادة عند أسوار القدس، وقد تحمس المسلمون في القتال حتى اضطروا فرسان الصليبيين إلى الاختباء

وعدم الخروج من المدينة ووصل المسلمون إلى الخندق، وتمكنوا من بدأ النقب في الأسوار في الوقت الذي كانت المنجنيقات تمنع الأعداء من الدفاع عن الأسوار، حتى يئس الصليبيون من جدوى دفاعهم وأحسوا أن القدس مأخوذة منهم وأن المسلمين لن يدعوها، عند ذلك بدأوا التفاوض مع صلاح الدين على تسليم البلد، فاستشار صلاح الدين العلماء والقوَّاد، فأشاروا عليه بتأمين الناس على أن يدفع كل واحد منهم مقداراً محدداً من المال ويسمح له بالخروج آمناً، ويعطي الناس مهلة أربعين يوماً لمن أراد الخروج منهم بهذه الشروط، وتم تسليم المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ الموافق ١٢/١٠/١١٨٧م.<sup>(١٢٣)</sup> وكان يوماً مشهوداً علا فيه صوت التكبير والتهليل والتحميد مختلف أنحاء القدس والمناطق المحيطة بها، وتوجه المسلمون إلى المسجد الأقصى وطهروه من بقايا عبث النصارى الصليبيين، وكانوا قد أقاموا في محرابه الخنازير إمعاناً في إهانة المسلمين، وتم تنظيفه وجمع ما حوله وأزيلت الأبنية التي قسموا بها المسجد وأعادته المسلمون كما كان وأنزلوا الصليب الذي وضعه النصارى على قبته، يقول أحد

(١) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢١٤. وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٣.

شهود العيان: (وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من ذهب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم أعلى القبة ليقتلعوا الصليب فحين صعدا نظر المسلمون إليهم وإلى الأفرنج لينظروا ماذا يصنعون، فلما قلعوه وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحاً وأما الفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمتها وشدتها)، وتم تجهيزه للصلاة في أول جمعة، وكان يوماً مشهوداً، حضره المسلمون من مختلف بلاد الشام القريبة ليشهدوا أول جمعة في الأقصى بعد تطهيره من شرك الصليبيين وشركهم، وذرفت دموع المسلمين وهم يشهدون هذا التجمع المهيب ويهللون ويكبرون ولربهم يتواضعون وصعد خطيب المسلمين منبر الأقصى وبحضور الفاتح صلاح الدين الذي جلس متواضعاً في صفوف المصلين كواحد منهم، وبدأ الخطيب خطبته بقوله تعالى: ﴿فَقُطِّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الآية (٤٥) [الأنعام].

وبعد هذا الفتح وفى المسلمون للنصارى بعهودهم فأخرجوا من أراد الخروج بالمبلغ المتفق عليه، وبقيت كنائسهم على ما هي عليه سوى ما أخذوه من مساجد المسلمين، وقد خرج كثير من كبرائهم وقوادهم وأمرائهم بأموالهم ولم يدفعوا عن ضعفائهم،

وعلى رأس هؤلاء بطريك القدس وجمع كبير من رجال الدين النصارى، وبذل بعض أثرياء المسلمين من أموالهم فدية عن النصارى.

وقد كان صلاح الدين - رحمه الله - رحيماً بالضعفاء والأرامل وأعزة القوم الذين ذلوا فقد كان في القدس بعض نساء ملك الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها بأموالها وبمن معها.

وكذلك خرجت زوجة ملك نصارى بيت المقدس، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والجواري فاستأذنت السلطان في الاجتماع بزوجها الأسير عند المسلمين في نابلس فأذن لها فتوجهت إليه وأقامت عنده. وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع والكنائس ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له السلطان، فقيل له: (خذ ما معه لتقوى المسلمين فقال: لا أغدر به)، ولم يأخذ منه سوى عشرة دنانير وهي ما يؤخذ من الأفراد العاديين.

وسير جميع من يريد الخروج من الفرنجة ومعهم من يحميهم إلى ميناء صور.

ويثني المؤرخون جميعاً غربيين وشرقيين، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين أثناء فتح بيت المقدس ويتحدثون بإعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والمحتاجين من الفرنجة، وعن إكرامه النساء ورأفته بالأطفال ورعايته للضعفاء منهم ويشهدون بأن جنوده كانوا على غرارهم في المروءة والشهامة، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير أي أمر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على أيدي الجنود المنتصرين، والتي وقع كثير منها عندما احتل الفرنجة القدس.

وعُد هذا الفتح نعمة كبيرة من الله على المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث عمت به البشرية ودعا الناس لصلاح الدين منذ ذلك اليوم ولا زالوا يدعون له وأنشد الشعراء قصائد عرفت بالقدسيات وتكلم الأدباء في هذه المناسبة التي أفرحت المسلمين في كل مكان، وكان مما قاله بعض الشعراء:

أترى مناماً ما بعيني أبصر

القدس يفتح والفرنجة تكسر

وقمامة قمت من الرجس

الذي بزواله وزوالها يتطهر

ومليكم في القيد مصفود

ولم ير قبل ذاك لهم ملك يؤسر

قد جاء نصر الله والفتح الذي

وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

وقد أخذ صلاح الدين يشرف بنفسه على تنظيم شؤون المدينة المختلفة وفتح بعض المدارس ورتب المساجد وأتمتها ومؤذنيها وما يلزمها، كما اعتنى بإقامة الحق والعدل لجميع رعاياها من المسلمين ومن بقي فيها من النصارى.<sup>(١٣)</sup>

ونحن إذا ذكرنا أعمال صلاح الدين - رحمه الله - وقيم المسلمين وتأديبهم بأداب دينهم التي تمنعهم من الاعتداء وتأميرهم بالعدل نرى ما يجري للمسلمين على أيدي النصارى الصرب، وما جرى لهم على أيدي اليهود في الخليل ونقول وفاءً بغدر، وأن نصر الله لآتى ولن تعجز هذه الأمة عن أن تلد صلاح دين جديد بإذن الله يعيد القدس مرة أخرى إلى الإسلام ويرى العالم كيف يتخلق المسلمون بأخلاق الرحمة حال الانتصار، والله المستعان.

(١) راجع كتاب: الفتوح الإسلامية عبر العصور، للكاتب، ص ٢٨٩.